الفصل السادس

فكر ضلَّ طريقه

«على سؤال: ما الذي جعلك أيها الضليع في علم الرياضيات، تؤمن بأن كائنات فضائية دائبة على مراسلتك؟ كان الجواب الآتي: حصل ذلك لأن ما امتلكته من أفكار حول كائنات خارقة جاءتني عبر قناة أفكاري الرياضية نفسها».

سيلفيا نصار، عقل جميل

شأنها شأن أي عضو بشري، تبقى أجهزة الفكر عرضة للانهيار والشلل. ومثل هذه الأعطال كثيرًا ما تتمخض عن أوهام ـ أمراض فكرية، ومع أن الأوهام سهلة الاكتشاف، فإن تصنيفها المحدد ليس ميسَّرًا. وجمعية الطب النفسي الأمريكية ترى الوهم اعتقادًا زائفًا قائمًا على استنتاج حول واقع خارجي، اعتقادًا دائم الرسوخ خلافًا لما يؤمن به الآخرون، ورغم وجود ما يشكل برهانًا أو دليلًا واضحًا وغير قابل للدحض على العكس. ثمة حشد من الإشكاليات حول هذا الرأي أو التوصيف ـ لا حاجة إلى أن تكون الأوهام زائفة، ولا يوجد ما يدعو إلى أن تكون ذات علاقة بأي واقع خارجي ـ

obeikandl.com

إلا أنه (الرأي أو التوصيف) يضع يده على السمة الجوهرية للأوهام؛ على حقيقة انفصال الأفكار الوهمية الضالة عن الواقع.

تُغرِق الأوهامُ دارس الفكر بفيض من الأسئلة المُرْبِكة: ما الأفكار التي تكون أوهامًا؟ كيف يمكن تفسير الأوهام؟ وما الذي يمكن للأوهام، إذا أمكنها بالمطلق، أن تنبئنا به عن بنيان الفكر؟ لا يتسع هذا الفصل لتقديم أجوبة تفصيلية عن جملة هذه الأسئلة، غير أننا سنشير إلى حيث يمكن الاهتداء إلى مكامن بعض الأجوبة.

طبيعة الأوهام

من شأن الأوهام أن تأخذ صورًا مختلفة؛ فبعض مرضى الأوهام يعانون أوهامًا أحادية الموضوع، وهي معروفة بهذه التسمية؛ لأن أوهام المريض محصورة بموضوع وحيد. كثرة من الأوهام الأحادية تتميز بمضامينها الشاذة غير المألوفة؛ يتميز وهم كابغراس (Capgras delusion)ـ مثلًا ـ بفكرة أن شخصًا قريبًا (نموذجيًّا أحد أفراد العائلة) دجَّال خلافًا لما يُظن، ووهم كوتارد (Cotard delusion) يتميز بالاقتناع بأن أجزاء من الجسم تتعفن أو بفكرة الموت في الحالات القصوى. ومن أولى أعراض الشيزوفرينيا (انفصام الشخصية) وهم تعرض حركات المريض لتحكم آخرين (وهم إقحام الأفكار). توجد أوهام أحادية أخرى منطوية على أفكار دنيوية نسبيًّا، مثل الاقتناع بخيانة الزوج أو بالتعرض للملاحقة والاضطهاد من قبل الجيران أو من جانب الحكومة، وهذه الأفكار تتحدد أوهامًا لا لأن مضامينها خيالية ـ فمن شأن بعض الأزواج ألا يتحلوا بالوفاء، فضلًا عن أن

الحكومات مشهورة الولع بملاحقة مواطنيها واضطهادهم آخر المطاف- بل لأنها راسخة بقوة وعن قناعة لا تتناسبان مع الأدلة المتوافرة.

يمكن للأوهام الأحادية أن تختلف عن الأوهام متعددة الموضوعات، وهي أوهام غير محصورة بموضوع وحيد بل شاملة لحشد واسع من الموضوعات، وقصة قاضي المحكمة العليا الألماني دانييل شْرَبَر (Daniel Schreber) توفر مثالًا كلاسيكيًّا للأوهام التعددية؛ فشبكة قناعات شْرَبَر الوهمية شملت بث إشعاعات معيَّنة مفعَّلة، يوجد مثال أقرب زمنيًّا لوهم تعددي يخص عالم الرياضيات البرنستوني جون ناش (John Nash) الذي كانت شبكة أفكاره الوهمية شاملة للاقتناع بأنه إمبراطور قارة القطب الجنوبي، بأن غرباء يمطرونه بوابل من الرسائل المشفَّرة عن طريق ألـ (نيويورك تايمز)، وبأن كل رجل يضع ربطة عنق حمراء هو عضو في إحدى المنظمات الشيوعية الدولية.

صحيح أن الأوهام أفكار، ولكنّ أي نوع من الأفكار هي؟ توجد مسألتان عن كل من مضمون الأوهام وموقفها. لنبدأ بمسألة المضمون.

في بعض الحالات (أوهام البارانويا / جنون الارتياب مثلًا) يكون مضمون الوهم واضحًا وضوحًا مقنعًا؛ فمن يقول إنه ملاحق من قبل عناصر الحكومة قد يكون مقتنعًا تمامًا بما يقوله، أما في حالات أخرى فإن من الصعب معرفة ما قد يتضمنه الوهم - إذا كان يفعل بالمطلق - من محتوى، انظروا إلى ادعاء جون ناش، ما الذي يمكن أن يعنيه مثل هذا الزعم؟ هل هو كناية عن شيء ما؟ إذا كان كذلك، فما هو؟ أو عاينوا زعم مريضة مقتنعة بأن أمها كانت تتحول إلى شخص آخر كلما وضعت

النظارات على عينيها. ما قد يكونه بالتحديد مضمون الفكرة الكامنة في عمق مثل هذا الزعم بعيد عن أن يكون واضحًا مرة أخرى، وقد نتمكن من إضفاء نوع ما من أنواع المعنى على مثل هذه المزاعم، إلا أنها لا تلبث أن تقربنا من حدود قابلية الفهم، وفي بعض الحالات من شأن التعبيرات المضلِّلة أو المخادعة أن تكون محاولات لإيصال فكرة ذات مضمون شديد الغموض، أما في حالات أخرى فقد يكون مثل هذا الكلام المخادع كلامًا فارغًا لا يخفي وراءه أي فكر كامن بالمطلق.

وماذا عن مكوِّن الموقف للأوهام؟ ما أنواع الأفكار التي هي أوهام؟ الجواب الدارج هو أن الأوهام قناعات، إلا أن الأطباء النفسانيين طالما عبروا عن تحفظاتهم إزاء التصور الإيماني (الإيماني ترجمة لتعبير دوكساستيك المشتق من كلمة دوكسا doxa اليونانية التي تعني العقيدة أو الرأي). والرواية الإيمانية هذه إشكالية من نواحٍ مختلفة، إلا أن الاعتراض الأكثر جدية عليه هو أن الأوهام كثيرًا ما تخفق في التمخض عن أنواع الردود السلوكية والعاطفية التي يمكن توقعها لو كانت عقائد إيمانية، وكما لاحظ الطبيب النفساني السويسري يوغن بلولر(Eugen Bleuler)، فإن من الوارد بالنسبة إلى المسكونين بالأوهام أن يتصرفوا كما لو لم تكن تصريحاتهم الواهمة مرشحة لأن تُفهم (إلا رمزيًّا)؛ قد يكون المريض الذي يزعم أنه نابليون- مثلًا- سعيدًا إذا تلقى أمرًا بالذهاب إلى الفراش.

أما إذا لم تكن الأوهام عقائد، فما عساها أن تكون؟ قيل أحيانًا إن الأوهام نوع من أنواع الحالة العقلية الملتبسة، قد لا يكون المريض الذي

يزعم أنه نابليون مؤمنًا فعلًا بأنه نابليون، لكنه منخرط في نوع من الاعتقاد الخيالي بأن الأمر لا يعدو كونه تظاهرًا. ما الذي نستخلصه من هذه الفكرة؟

علينا بالتأكيد أن نقبل بأن من شأن بعض الأوهام أن تنشأ من أفعال الإيمان المصنّع؛ يمكن ـ مثلًا ـ لحالة غيرة وهمية أن تبدأ بـ (مجرد التفكير) بأن لزوج المرء علاقة غرامية، وعند هذا المنعطف قد لا يصدق المريض الفكرة؛ يبدو الأمر مجرد ورود للاحتمال، أما القول بأن الوهم قد ينشأ عن حالة عقلية غير ملتزمة، فلا يعني أنه سيواصل الاحتفاظ بذلك الوضع؛ لأن الفكرة قد تباشر، بعد مراودة الفرد، الاستقرار في عقل ذلك الفرد بوصفها إمكانية حية، ولا تلبث أن تتطور مع الزمن إلى قناعة قوية ثابتة الرسوخ رغم ما يعتقده الآخرون جميعًا.

لا شك أن بعض الأوهام ترتدي ثوب العقائد والقناعات؛ فالطبيب النفساني الفرنسي جول كوتار الذي أضفى اسمه على وهم كوتار، أفاد بأن أحد مرضاه لم يكتف بادعاء الموت بل تمدد في تابوت وطالب بالدفن، كذلك عُرف مرضى كابغراس بالسلوك العدواني مع أحد أفراد العائلة؛ لاعتقادهم بأن الشخص المعني لم يكن الشخص المزعوم أنه هو. يمكن للأوهام بالفعل أن تنطوي على عواقب قاتلة؛ ففي أحد الأمثلة طور رجل وهمًا قائمًا على أنه ذو رأسين؛ أحدهما عائد باعتقاده إلى الطبيب النسائي لزوجه المرحومة، لفت المريض أنظار الأطباء النفسانيين إلى أنه دخل المستشفى لعلاج جرح بالرصاص ناجم عن محاولة فاشلة لإزالة الرأس الثاني. وإذا كانت أفعال الشخص عاكسة لقناعاته، فلا يوجد أي شك بأن هذا المريض كان بالفعل مؤمنًا بأنه ذو رأسين.

تفسير الأوهام

لنتحول عن مسألة إمكانية استيعاب الأوهـام بعيدًا عن تصنيفنا للأفكار إلى مسألة إمكانية تفسيرها. ما الذي يجعل أحدهم يعتقد، في مواجهة الدلائل الصارخة جميعها على العكس، بأن جيرانه يلاحقونه، وبأن زوجه استُبدلتْ بدجالة، أو بات الشيطان دائبًا على زرع الأفكار في رأسه؟

نستطيع أن نميز نوعين من التفسيرات التي يمكن أن يقدمها المرء عن الفكر، من ناحية يمكنه أن يسوق تفسيرًا سببيًّا (أو فيزيولوجيًّا) فجًّا لما أدى إلى امتلاكه فكرة محددة. وتطبيقًا على مثال الأوهام يستطيع المرء أن يفسر تكوين أي وهم عن طريق مناشدة واقع تعرض الشخص لرضة دماغية من نوعية معيَّنة، أو عن طريق الإشارة إلى امتلاكه مستويات غير عادية من ناقل عصبي معين. بدأ الطب العصبي-النفسي بوضع مشروعات تفاسير من هذا النوع لأنماط معينة من الأوهام - يوجد ما يشير- مثلًا- إلى أن الأوهام مرتبطة بحدوث خلل في الفص الجبهي الأيمن، وإلى أن من شأن بعض الأوهام الفصامية أن تُعزى إلى مستويات غير عادية من الدوبامين* - مع أننا مازلنا بعيدين بعض الشيء عن الفهم السببي للأوهام.

قد تتباين التفسيرات السببية الخالصة لأي فكر مع التفسيرات المعقلنة؛ التفسيرات التي تجعل حيازة الفكر مفهومة من وجهة نظر صاحب العلاقة، ومن شأن أي تفسير معقلن ألا يكتفي بتفسير ما تسبب بالوهم المعني، بل وسيعمد إلى تقديم علة للأمر؛ لتمكيننا من فهم ما جعل الفرد يكتشف أن تلك الفكرة بالغة الإقناع. ما مدى إمكانية توفير تفسير عقلاني للأوهام؟

أصوات مؤثرة في تاريخ الطب النفسي أوحت بأن من شأن الجواب عن هذا السؤال أن يكون (لا)؛ ففي كتابه الأمراض النفسية العامة، زعم الطبيب النفسي كارل ياسبرز (Karl Jaspers) أن هناك اختلافًا جذريًّا بين ذلك النمط من الحياة النفسية التي نستطيع أن نحسها ونفهمها، وذلك النمط الذي يكون- بطريقته الخاصة- غير قابل للفهم والذي يكون مشوهًا حقًّا وفصاميًّا'. ثمة سبب وجيه لأخذ زعم ياسبرز مأخذ الجد، ففي آخر المطاف، ليس واضحًا أن الفكر يمكن جعله قابلًا للفهم دائمًا، ربما لا يمكن تفسير بعض الأفكار إلا من منطلقات سببية أو (فيزيولوجية) خالصة. غير أننا نمتلك الأسباب كلَّها الداعية إلى البحث عن تفسيرات معقلنة، وإن لم تتوافر أي ضمانة لتزويد الأوهام بمثل هذه التفسيرات؛ فأي تفسير معقلن للأوهام قد يقيم جسرًا بين الاعتقادات الوهمية ونظيرتها اللاوهمية، بما يمكننا من وصف الفكر الوهمي على أنه واقع على خط متصل مع صيغ الفكر العادي بدلًا من كونه شيئًا مختلفًا نوعيًّا.

كيف يمكن لأي تفسير معقلن للأوهام أن يبدو إذن؟ ما أنواع العمليات النفسية (السايكولوجية) القابلة لتعليل قيام الأفراد بتشكيل القناعات رغم وجود ما يشكل برهانًا أو دليلًا غير قابل للدحض على العكس؟

يتمثل أحد الاحتمالات بأن أوهامًا معينة متجذرة في عمليات الدافعية، من المؤكد أننا نعرف أن العوامل التحريضية تستطيع أن تمارس تأثيرًا قويًّا على تشكل القناعات؛ فهي نافذة لا بالنسبة إلى ذلك النوع من الدليل الذي نبحث عنه وحسب، بل وفيما يخص الطريقة التي نعتمدها لتقويم الأدلة الموجودة بين أيدينا؛ إننا نرى آثار مثل هذه العوامل في ظاهرة خداع

الذات، غير أن أكثرنا قادر عادة على كبح نزعات خداع الذات لدينا، وربما لا تبرز الأوهام ـ أقله أنماط معينة من الأوهام ـ إلا حين يُزال هذا الكبح.

من الواضح أن العوامل التحريضية تؤثر في تشكيل بعض الأوهام، وتبدو العوامل التحريضية هذه دائبة على النشاط بأجلى الصور على صعيد جنون أو هوس الشبق (الجنس)، المعروف أيضًا بوهم دي كليرامبولت (Clerambault delusion)، حيث يكون المريض (المريضة) مقتنعًا (مقتنعة) بأن أحدًا (واحدة) من موقع اجتماعي أعلى واقع (واقعة) في حبه (حبها)، وبقدر أقل من الوضوح يمكن للعوامل التحريضية أيضًا أن تضطلع بدور في تحمل مسؤولية أوهام الشعور بالاضطهاد. نفَّذ عالم النفس ريتشارد بنتال ومعاونوه رواية نافذة ذات قاعدة تحريضية لقصة أوهام الاضطهاد، يتولى المريض بموجبها تطوير أوهام اضطهادية بهدف حماية نفسه من تهديدات مدركة ذاتية التصور، حيث تنطوي خلفية هذه الرواية على نوع من التضارب بين طريقتين معتمدتين في تفسير أي حدث؛ طريقة تفسير استبعادية للحدث تقوم على استحضار التأثير الخارجي أو العوامل الظرفية؛ يمكن للمرء ـ مثلًا ـ أن يفسر عدم حصوله على وظيفة بافتراض أن المقابلة لم تكن منصفة. وطريقة تفسير استيعابه منطوية ـ بالمقابل ـ على مناشدة مواصفات المرء وميزاته؛ يستطيع المرء ـ مثلًا ـ أن يفسر عدم حصوله على وظيفة بافتراض أنه لم يكن مؤهلًا لها. ما علاقة هذا التمايز بتفسير أوهام الشعور بالاضطهاد؟ إليكم الفكرة: لدى تعرضه للحاجة إلى تفسير حدث معين، سيكون أي شخص ذاتي الإحساس بالهشاشة شديد الميل لتبني أحد التفسيرات الاستبعادية (تآمرت الأقدار

ضدي!)، والتغافل عن أي تفسير استيعابي (لم أكن على درجة كافية من الجودة) الذي من شأنه أن يهدد احترامه الذاتي الهش سلفًا، ولدى إيصاله إلى حده الأقصى، يمكن للمرء أن يرى أن من شأن مثل هذا النزوع أن يفضي إلى التمخض عن أوهام اضطهادية. ترقى هذه الرواية إلى مستوى التفسير المعقلِن ليس لأنها تمثل أوهام اضطهاد قائمة على أدلة، بل لأنها ترى هذه الأوهام متجذرة في دافع نفسي مألوف وقابل للفهم؛ دافع المرء لحماية تصوره الذاتي من أي أخطار خارجية.

من الممكن ربما تزويد أوهام الاضطهاد بتفسيرات معقلنة من النوعية الموجزة للتو، غير أن أوهامًا كثيرة لا تبدو العوامل التحريضية ذات شأن بالنسبة إليها. ما أنواع التفسيرات المعقلنة الأخرى التي يمكننا أن نلوذ بها لتفسير الأوهام؟

رأى الطبيب النفساني الأمريكي برندان ماهر (Brendan Maher) أن من الممكن عدُّ الأوهام نظريات، يصوغها الشخص موضوع الدراسة بهدف فرض نوع من النظام والمعنى على ضروب معينة من التجارب الغريبة أو الشاذة. في الحقيقة يوجد طريقان قد يفضيان إلى تمخض التجارب الشاذة من الإفضاء عن أوهام؛ فأحد حوافز الأوهام التجريبية ينطوي على ما تم إلباسه ثوب (المزاج الوهمي)، والطبيب النفساني كارل ياسبرز وصف ما أطلق عليها اسم (أوهام أولية) على أنها التبلورات الضبابية الغامضة لتجربة وهمية مشوشة ومرجعيات ذاتية مشتتة ومربكة؛ ففي بعض تجليات المزاج القائم على الوهم قد يختبر الشخص موضوع الدراسة حاجة ما ـ طاولة، أو ملاحظة، أو ترتيب عروق الورد في مزهرية

ـ متوافرة على قدر من المغزى الشخصي غير الموجود، وفي تجليات أخرى من شأن أشخاص ذوي مزاج وهمي أن يشكّوا باستمرار قدراتهم على التقاط معاني الأشياء؛ قد يقولون إنهم مغرَّبون عن العالم، أو إنهم عاجزون عن فهم العلاقات القائمة بين الأشياء، ومن شأن هذه التجارب ـ التي كثيرًا ما يجهد المرضى لمفصلتها والتعبير عنها ـ أن تفضي إلى أوهام متعددة الموضوعات مع سعي المريض إلى العثور على نوع من المعنى في زحمة شواش التجارب.

وفي حين أن الأوهام متعددة الموضوعات غالبًا ما تكون مستندة إلى مزاج وهمي سائب، فإن من شأن الأوهام أحادية الموضوع أن تقوم على قاعدة أنواع معينة من ألوان الشذوذ التجريبي؛ لعل أسطع الأمثلة على هذه المقاربة إحدى قصص وهم كابغراس (Capgras delusion) التي ندين بها لطبيبي النفس والأعصاب هايدن ايليس وأندرو يونغ (Hayden Ellis& Andrew Young)، اللذين انطلقا من أنموذج جيد الرسوخ لترجمة الوجوه، أنموذج يستخدم الجهاز البصري بموجبه معبَرَيْن لترجمة المعلومات عن الوجوه؛ معبر دلالي يولد معلومات عن هوية الوجه المعني، ومعبر عاطفي يولد ردًا عاطفيًّا ـ ما يعرف بشعور الألفة ـ إزاء الوجوه المعروفة. افترض ايليس ويونغ أن وهم كابغراس ناجم عن عطب حاصل في المعبر العاطفي، مع أن المريض قادر على تبيُّن وجوه أفراد العائلة، فإن هذا التبيُّن ليس مصحوبًا بمشاعر المودة المألوفة. ولتفسير هذا الأمر الغريب، يعمد المريض إلى تشكيل قناعة بأن الشخص الذي ينظر إليه ليس أحد أفراد

العائلة بل دجَّال وغد، ولقد تأكد هذا الأنموذج بالاهتداء إلى أن التجاوب النفسي مع الوجوه المألوفة لدى مرضى كابغراس مختزل اختزالًا شاذًا.

يتمثل وهم آخر له قصة ذات أساس تجريبي مُقْنِع بوهم تحكم الغرباء، وهم يعتقد صاحبه المريض بأن تحركاته خاضعه لتحكم قوى غريبة ورقابتها، وهذه القصة التي طورها عالم النفس كريس فريث وزملاؤه توحي بما يأتي: في الدماغ الطبيعي تنطوي الحركة ذاتية المنشأ على تشغيل أنموذج يتيح لجهاز التحريك فرصة التنبؤ بالعواقب الحسية لحركات المرء؛ يتنبأ النظام- مثلًا- بما سيحصل من شعور إذا ما حرك المرء يده. ونتيجة لهذه التنبؤات تُخفَّف العواقب الحسية للحركات، وتكون الأحاسيس المتولدة عنها أقل حدة من تلك المتولدة عن تحريك اليد من شخص أو شيء آخر. (هذا يفسر صعوبة الدغدغة]الكركرة[الذاتية)، غير أنه يوجد ما يوحي بأن هذا الأنموذج يتعطل لدى الأفراد الذين يعانون أوهام تحكم الغرباء؛ لأن أمثال هؤلاء يعيشون أحاسيس ناجمة عن حركاتهم الخاصة، لا تكون أقل حدة من الأحاسيس الناجمة عن الحركات الصادرة عن أفراد آخرين. (تتنبأ هذه القصة بأن يكون مرضى أوهام تحكم الغرباء قادرين على دغدغة أنفسهم، وهي نبوءة تتكشف عن أنها صائبة). كيف يمكن لهذا كله أن يفسر أوهام تحكم الغرباء؟ لأن العواقب الحسية لحركات المريض الخاصة لا تتعرض للتخفيف، كما من شأنه أن يحصل في الحالة العادية، فإن هذه الحركات توحي كما لو كانت خاضعة لتحكم قوى خارجية. لا غرابة إذن أن يبادر المرضى إلى تشكيل الاعتقاد بأن حركاتهم خاضعة

لتحكم عناصر أخرى؛ لأن هذا الاعتقاد يبدو مفضيًا إلى إضفاء نوع من المعنى على تجاربهم الشاذة وبالغة الإزعاج.

من الخبرة إلى الاعتقاد

يبدو أن الخبرات الشاذة تضطلع بدور مهم على صعيد تشكيل عدد من الأوهـام، غير أنه يوجد ما يدعو إلى الظنِّ بأن على أي تفسير كامل للأوهام أن يتجاوز ألوان الشذوذ التجريبية؛ يوجد ـ مثلًا أوهام كثيرة، مثل إيمان (اعتقاد) المرء بأنه قدم ملاك ـ لا تبدو مستندة إلى أي نوع من أنواع التجارب غير العادية. يضاف إلى ذلك أن هناك ـ دون شك وحتى حين يكون الوهم قائمًا على نوع من التجربة غير العادية ـ فجوة من نوع ما بين مضمون التجربة ومضمون الوهم الحاصل: عيش تجارب غرابة لدى النظر إلى وجه الزوج شيء، والإيمان بأن تلك الزوج قد جرى إبدالها بدجَّالة مخادعة شيء آخر تمامًا. نحن بحاجة إلى تفسير سبب قيام المرضى بعطف تجاربهم الشاذة على النحو الذي يفعلونه (زوجي دجَّالة) رافضين جملة التفسيرات المعقولة أكثر التي يقدمها الأصدقاء، وأفراد العائلة، وعناصر الفريق الطبي (لقد تعرضْتَ لجلطة أدتْ إلى تعطيل جهازك البصري). فأي نوع من أنواع العوامل اللاتجريبية يمكن أن يسهم في تفسير الأوهام؟

إليكم فكرة وردت بوصفها أحد العوامل الممكنة؛ انظروا إلى وضع تتضارب فيه مؤشرات المرء الحسية مع المعتقدات السائدة في محيطه، قد يعتقد المرء ـ مثلًا ـ أن فراخ البط جميعها تستطيع السباحة، ثم لا يلبث

أن يفاجأ بما يبدو فرخ بط عاجزًا عن السباحة، فماذا عليه أن يفعل؟ هل يجب التخلي عن الاعتقاد بأن فراخ البط جميعها تستطيع السباحة ؟ أم يتعين عليه استنتاج أن الحواس خداعة (كما هي أحيانًا بالفعل)، والإقرار بأن الفرخ المعني ليس بطًّا على الرغم من أنه يبدو كما لو كان بطًّا؟ لا توجد أي إستراتيجية عامة ينبغي اعتمادها للتوفيق بين الدليل الحسي والقناعة السائدة في الخلفية، ففي بعض الحالات يتعين على المرء أن يسلم بشهادة حواسه فيعيد النظر في قناعاته السابقة، وفي حالات أخرى لا بد له من الحفاظ على قناعاته النابعة من محيطه فيستنتج أن حواسه تخدعه، وفي حالات ثالثة قد يكون من المناسب الإحجام عن إصدار الحكم إلى حين الحصول على المزيد من المعلومات (انظر فقرة ممارسة التفكير أواخر الفصل الأول).

كيف يمكن لهذه المسألة أن تنعكس على تفسير الأوهام؟ يرى توني ستون وأندرو يونغ أن من شأن المرضى الواهمين أن يكونوا منحازين عمومًا إلى تمييز الأدلة المستمدة من الملاحظة على حساب القناعات السائدة في المحيط؛ ففي حين أن بوسع شخص بريء من الوهم أن يستنتج أن حواسه تخدعه لدى مواجهة تجارب شاذة من النوع الذي يواجه الشخص الواهم، فإن الشخص المسكون بالأوهام ميال إلى التسليم بتجاربه كما هي، ويكون أكثر استعدادًا لإعادة النظر في القناعات المستمدة من المحيط مقارنة مع ما قد يكونه شخص من دون أوهام.

ينطوي عامل مرشح آخر على ما بات يعرف بـ (انحراف القفز إلى النتائج) في عملية تشكيل القناعات؛ ففي دراسات معينة لهذه العملية يوضع

المشاركون أمام جرَّتين: (أ، ب)، في كل منهما خرزات ملونة بنسب معينة، قد يكون في الجرة (أ) ـ مثلًا ـ سبع خرزات حمراء مقابل كلٍّ خرزتين زرقاوين، مع احتمال جعل النسبة معكوسة في الجرة (ب)، ثم تُعرض الخرزات التي يفترض أنها مسحوبة من الجرة (التي يحددها القائمون بالتجربة) على المشاركين الذين يطالَبون بتخمين الجرة التي سُحبت الخرزات منها. اهتدت الدراسات إلى أن الأفراد الواهمين يكونون نموذجيًّا أسرع حزرًا وأقوى يقينًا في تخميناتهم من نظرائهم غير الواهمين؛ بعبارة أخرى يبدو الأفراد الواهمون قافزين إلى النتائج: يظهرون مستعدين لقبول الفرضيات استنادًا إلى دلائل أقل من تلك التي يشترطها ـ نموذجيًّا ـ غير الواهمين.

ليس أي من هذين العاملين الآخرين خاليًا من اللبس؛ فإذا كان الأفراد الواهمون منحازين عمومًا لصالح الأدلة القائمة على الملاحظة مفضلينها على قناعات الخلفية، فإن من شأن المرء أن يتوقع انجرارهم روتينيًّا إلى تبنّي أوهام إدراكية، ولا يوجد ما يشير إلى أن الأمر هو كذلك. وإذا كانت الأوهام ستُفسر بالانطلاق من انحراف القفز إلى النتائج، فلماذا لا يقفز مرضى الأوهام من القناعات الوهمية إلى نظيرتها اللاوهمية حين يواجهون بما يدحض الأوهام؟ في الحدود الدنيا، سيبقى اقتراح القفز إلى النتائج بحاجة إلى استكمال برواية ثبات وهمي ـ واقع أن الأوهام غالبًا ما تكون عالية مستوى المقاومة للأدلة المضادة ـ إذا كانت ستنطوي على أي قدر من قوة الإقناع.

من غير المستغرب ربما أن الاهتداء إلى عامل ثانٍ مقنع أثبت أنه بالغ الصعوبة؛ لأن شروط طرح المشكلة بالذات لا توفر أي هامش ذي شأن للمناورة؛ دعوني أفسر: من ناحية أولى يتعين على العامل الثاني المرجو أن يميز عملية تشكيل القناعات عمومًا (بدلًا من الاقتصار على وصف مجالات اعتقاد مختارة وحسب)؛ لأن عملية تشكيل القناعات بطبيعتها بالذات عملية كاملية. أما إذا كان العامل الثاني شاملًا لسائر المجالات، فإن من شأن المرء أن يتوقع أن تكون آثاره متجلية في مجمل رصيد قناعات المريض؛ وبعبارة أخرى، من شأن المرء أن يتوقع أن المرء مسكون بأوهام حول سائر ألوان الموضوعات، غير أن الأوهام الأحادية تبقى- تحديدًا- محصورة بموضوع معين؛ فخلافًا لقناعات مرضى الأوهام المتعددة، تكون قناعات مرضى الأوهام الأحادية غير لافتة عمومًا، قد تكون التحديات التي تواجهنا في توفير نوع من التفسير المعقلن للأوهام الأحادية على هذا الصعيد- إذن- أكثر حدة من تلك التي تطرحها الأوهام التعددية.

التعلم من الأوهام

ما الذي يمكن لدراسة الأوهام أن تعلمنا إياه حول طبيعة الفكر عمومًا؟ يتعلق أحد الدروس المنبثقة مما سبق بتحدي استيعاب الأوهام في إطار تصورنا النفسي الشعبي العادي للفكر؛ إذ يمكن- كما لاحظنا- طرح أسئلة مشروعة حول مواقف الأوهام ومضامينها على حد سواء، ليس الهمُّ هنا مجرد همٍّ تعرف مضمون هذا الوهم أو ذاك، أو تعرُّف نوعية موقف المرء إزاء ذلك المضمون. لعله بدلًا من ذلك أنه لا يوجد أي واقع حول الطبيعة المحددة بدقة لأي من الموقف والمضمون اللذين يميزان أوهامًا

معينة، غير أن تصورنا النفسي الشعبي للفكر ـ الذي هو التصور الوحيد للفكر لدينا ـ مشروط بأن ينطوي أي فكر على مضمون وموقف محددين، حاسمين، سيكون هذا الإطار بحاجة إلى نوع من التعديل الجذري لاستيعاب أوهام معينة.

دَرْسٌ ثانٍ يمكن استخلاصه يتعلق بالتحدي الذي يطرحه تفسير الأوهام؛ فعلى الرغم من أن العوامل التحريضية ونظيرتها التجريبية تبدو مضطلعة بدور في تشكيل أنماط معينة من الوهم، فإننا لانزال بعيدين عن امتلاك رواية كاملة لقصة تكوين الأوهام، ومشكلتنا في جزء كبير منها تنبثق من واقع افتقارنا إلى صيغة ناجحة لعملية تشكل القناعات اللامرضية. صحيح أننا نعرف أن تشكيل القناعات ينطوي على التفاعل بين معرفة العالم السائدة في المحيط والمدخَل الإدراكي، إلا أننا لا نعرف إلا القليل عن طبيعة هذا التفاعل؛فنحن لا نعرف ـ مثلًا ـ ما إذا كانت العمليات المنخرطة فيها عامة المجالات أو خاصتها، ولا نعرف أيضًا مدى موازنة هذه العمليات للحاجة إلى إضفاء معنى على البيانات الإدراكية مقابل الحاجة إلى أخذ اعتبارات الخلفية في الحسبان، ولأننا لا نعرف إلا القليل عن تشكيل القناعات الطبيعي، فليس لدينا إلا الضئيل من الإحاطة بأنماط الأخطاء التي يمكن أن تحصل في عملية التشكيل هذه.

اسمحوا لي أن أختم هذا الفصل بتأمل أخير؛ لدى سؤاله عن أساس أفكاره الوهمية، أجاب جون ناش قائلًا: «درجْتُ على أخذ أفكاري الوهمية مأخذ الجدّ؛ لأنها خطرت لي مثل ما فَعَلَتْ أفكاري الرياضية تمامًا». وفكرة

الأوهـام مصحوبة بنوع من الشعور بوضوح حَدْسي تتكرر معارضتها في كتابات أولئك الذين يعانون وطأتها، حيث إن لمثل هذه المزاعم مضاعفات أساسية على صعيد فهم العلاقة بين الفكر والعاطفة، فقد لا تكون بعض الأفكار مستندة إلى ما هو أكثر من نوع من التماهي العاطفي: (الفكرة توحي بأنها صحيحة). يبدو الأمر كما لو أن آليات دون- شخصية تقتفي أثر صدقية أفكارها مختلفة، مضفية ملاحق مشحونة عاطفيًّا تحمل عبارة «صوِّبيني!»، على بعض الأفكار، وعبارة «ادحضيني!» على أفكار أخرى. والملاحق الناتجة من هذه العملية تكون في متناولنا، غير أننا نبقى شبه غافلين عن السبب الكامن وراء إضفاء ملاحق معدودة على أفكار معينة. لعل ما يحدث في الأوهام هو أن عملية العنونة هذه تخرج عن سكَّتها، فيتم إضفاء ملحق التصويب المصاحب للرؤى الرياضية العميقة نفسه على أفكار لا يجوز إقرارها (أنا إمبراطور قارة القطب الجنوبي). بحسب وجهة نظر الشخص موضوع الدراسة، توحي الفكرة بأنها صحيحة ببساطة، ومن شأن الاقتراح القاضي بوجوب إخضاعها للمعاينة أن يبدو عبثًا من ألفه إلى يائه.

* * *

obeikandl.com